وفي الجفر اقام الشيوعيون علاقات حسنة مع السجانين من الضباط والجنود، فقد انعكس مسلكهم وتماسكهم الداخلي على السجانين فقدوا موضع احترامهم، وساعدهم ذلك على تحقيق عدد من المكاسب. وما يذكره زيادين عن طبيعة العلاقة مع جنود البادية يذكره جميع الذين عاشوا «حياة» الجفر.

«وكان الجنود يبدأون ايامهم الاولى معنا في منتهى الشراسة، والحقد يتطاير من عيونهم، لكن الحال يتبدل بمرور الوقت... كان الجنود يلاحظون الهدوء والتنظيم المسيطرين علينا، يلاحظون النظافة والتنظيم الكاملين، كان بيننا الطبيب والمهندس والمحامي والمعلم وكل المهن الاخرى، وكنا نعيش في نظام ووئام» (ص١٠٠). «كانوا يروننا نبدأ حلقات التدريس في الساحات، هذا صف الكيمياء، وهذا للرياضيات وثالث للغات. كان بيننا العديد من الطلاب. لم يشاهدوا مشاجرة في يوم ما ، على عكس الاقسام الاخرى. هناك لجنة تقوم بالاتصال بالادارة، ولجنة تقوم باستلام الارزاق الاسبوعية» (ص١٠١)، وكان الاطباء منهم يقدمون الخدمات المجانية للجنود والضباط وعوائلهم.

لكن العلاقة مع الجنود والضباط كانت تقابلها علاقة من نوع آخر مع المعتقلين الاخرين، فهؤلاء، كما يذكر زيادين، لم يستطيعوا تحمل حياة الاعتقال، وكان يثير حقدهم صمود الشيوعيين وحيويتهم الظاهرة، ولقد انفجرت احقادهم عقب احتفال اقامه الشيوعيون سنة ١٩٥٨ في ذكرى ثورة تشرين الأول (اكتوبر)، وعلى اثر المشاحنات نقل عدد من قادة الشيوعيين الى الزنازين وتعرضوا لاعتداءات كادت تودي بحياة بعضهم.

ويذكر الكاتب بعضا من انجازات الشيوعيين في الجفر فقد زرعوا الصحراء ليس بالخضار والفواكه لتحسين طعامهم فحسب، بل أقاموا الحدائق وزرعوا الازهار. حفروا الارض على عمق متر ونصف، وغسلوا التربة، ثم زرعوا السبانخ والبقطين والبندورة والخيار، وأنبتوا الدراق والعنب والرمان، ومددوا المواسير للري، وثبتوا النوافير في الحدائق. ومع تحسين نوعية غذائهم، حسنوا كذلك ظروف سجنهم. فصنع «فنّي» المعتقل «أبو جميل السرياني» المدافئ التي تعمل على السولار (المازوت) من براميل السمن الكبيرة، وكان هذا حدثا بالغ الاهمية في مناخ الصحراء حيث تصل درجة الحرارة في الليل الى عشر درجات تحت الصفر كما صنع (ابو جميل) فقاسة ضيصان، فأخذوا ينتجون البيض والفروج للمعتقلين، وابو جميل مع غيره، أمثال المهندس المرحوم حسني حداد، صنعوا العود، فكانوا يعزفون عليه ويحيون الامسيات الفنية، والعود صنعه المعتقلون من قرواة الطعام، فركبوا لها ذراعا وغلفوها بصفائح المعلبات وثبتوا عليها خيطان النايلون. وصنعوه كذلك من القرع، الذي كانوا يجففونه ويصفحونه. و (ابو جميل) هذا نصب كذلك طاولة للعب التنس. وأنشأوا ملعب وشبكة للكرة الطائرة، واقاموا محرقة للقمامة كانوا يسخنون الماء عليها للاستعمال اليومي، وكل ذلك الى جانب العمل التثقيفي المنظم الذي ساعد في تطوير معارف العديد من المعتقلين. وقد كان النقل الى الجفر، باستمرار، بالنسبة للمعتقلين بمثابة «نصف الفرج».

رحلة العذاب

عن «تلك الايام» يسجل زيادين ملحمة دامية من الصمود والاصرار على الصمود ، يصير المناضلون مثل حبات القمح التي تدخل في النقرة ويدور عليها الرحى ثم تخرج دون ان تتسحق وذلك حسب تعبير مكسيم غوركي.

في أواخر سنة ١٩٦٠ «وبعد مقتل رئيس الوزراء هزاع المجالي، وبعد الاستعانة بخبراء حلف الاطلسي لمحاولة اجتثاث التيار الوطني من البلاد... بدأت رحلة العذاب. بدأ ذلك باستدعاء عدد من المعتقلين ليعودوا بالحديث عن اسلوب جديد في التحقيق يدور بحضور شخص أجنبي معه مترجم، لا يسأل فقط عن الشخص نفسه، بل يخوض في أعماقه وصلاته وطريقة معيشته ومعارفه وأهله، ويكشفون له في بعض الحالات عن نقاط سوداء في حياته كحادث أخلاقي او تهمة ما » (ص١٠٢).